

البحث السادس عشر

سليمان وهاروت وماروت والشياطين والسحر

ما قاله المفسرون في ذلك وبيان ضعفه

قال تعالى في سورة البقرة ١٠٠: (أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون ولما جاءهم رسولٌ من عند الله مصدقٌ لما معهم نبذ فريقٌ من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحدٍ حتى يقولوا إنما نحن فتنَةٌ فلا تكفروا فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحدٍ إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاقٍ ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون، ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبةٌ من عند الله خيرٌ لو كانوا يعلمون).

اختلف المفسرون في معنى هذه الآيات فقال بعضهم في معناها أي انه لما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم مصدقاً للتوراة التي فيها ذكره ووصفه وعلاماته نبذ فريق من اليهود كتاب الله وهو التوراة وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ما فيه واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان أي ما كانت تتلوه في عهده من السحر والأعمال الغريبة أي أنه لما ظهر الرسول عارضوه بالتوراة فلما وجدوه مصدقاً لها نبذوا التوراة وأخذوا بما كانت تتلوه الشياطين على الناي في عهد سليمان من اقوال السحر حتى يعارضوا بها ما جاءهم به محمد صلى الله عليه وسلم. وإنما نسبوا الأعمال إلى سليمان لأن الله تعالى لما سخر إليه الجن ظنوا أن ملكه لم يقم إلا بالسحر والأعمال الغريبة ولذلك كانوا ينكرون نبوته ويعتقدون أنه ملك فقط وأنه عبد الأوثان إطاعة لبعض زوجاته الوثنيات فأراد الله تعالى أن يبرئه مما نسبته إليه اليهود بقوله (وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر).

وقوله (وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت) عطف على السحر. وما أنزل عليهما هو ما يفرق بين المرء وزوجه وقيل هو السحر بعينه فالمتعاطفان متحدان ذاتاً وإن تغايرا مفهوماً. وإنما أنزل الله هذين الملكين وإنزال عليهما السحر وما يفرق بين المرء وزوجه ليعلموا ذلك للناس لأسباب:

(أولاً) لأجل أن يبئلي الله الناس ويمتنحهم بذلك فمن تعلمه وعمل به فقد كفر ومن تعلمه وابتعد عن العمل به فقد ثبت على الإيمان والله أن يمتحن عباده بما شاء كما امتحن قوم لوط بالنهر على ما قال (فمن شرب منه فليس مني) ومن لم يطعمه فإنه مني.

(وثانياً) لأجل أن يعرف الناس الفرق بين السحر والمعجزة حيث كثر السحر في ذلك الزمن وأظهر السحرة أموراً غريبة وقع الشك معها في النبوة فبعث الله تعالى هذين الملكين ليعلموا الناس أبواب السحر حتى يزيلا الشبه ويميطا الأذى عن الطريق ولذلك فإنهما كانا يحذران الناس كما قال تعالى: (وما يعلمان من أحدٍ حتى يقولوا إنما نحن فتنَةٌ فلا تكفروا) هذا ملخص ما اتفق عليه جمهور المفسرين في معنى هذه الآيات.

ولا يخفى ما في هذا التفسير من الأمور التي لا تليق بالله تعالى ولا بملائكته وما فيه أيضاً من البعد عن معنى هذه الآيات ومقاصدها مما لا يعسر إدراكه على المتأمل.

وقال بعضهم أن قوله تعالى (وما أنزل على الملكين ببابل) عطف على لفظ (ملك سليمان) أي اتبعوا ما تتلو الشياطين افتراءً على ملك سليمان وافتراءً على ما أنزل على الملكين ببابل. ولكن هذا العطف بعيد جداً خصوصاً وأنه على هذا التفسير يكون معنى هذه الآية مناقضاً لصريح قوله فيما بعد (فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه) إذ كيف يكون افتراءً عليهما وهما يعلمانه حقيقة كما هو صريح الآية.

وقال بعضهم أن لفظ (ما) في قوله (وما انزل) نافية كما أن لفظ (ما) في قوله (وما يعلمان من أحد) نافية أيضا أي وما كفر سليمان ولا انزل على الملكين السحر ولا علماه لأحد حتى أنهما كانا يحذران الناس من أنفسهما ويقولان لهما (إنما نحن فتنة) أي امتحان للناس فلا تكفر. وهذا التفسير وإن كان حسنا في ذاته وفيه تنزيه للملائكة من تعليم الأمور المضرة إلا أنه مخالف لصريح قوله فيما بعد (ويتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء و زوجته) ولأن نفي إنزال السحر لا يستلزم نفي ما أثبتته الله لهما من تعليم التفريق وهو من الأمور المضرة أيضا التي لا تليق بالملائكة.

وقال بعضهم أنه توجد قراءة صحيحة ثابتة عن كثير من الصحابة كابن عباس وغيره بكسر اللام في لفظ (الملكين) أي أن الذين كان يتعلم الناس منهما ما يفرق بين المرء و زوجته إنما هما ملكان من ملوك أرض بابل هما هاروت وماروت لا ملكين من ملائكة السماء وليس معنى الانزال عليهما أنه وحى من الله تعالى لأن لفظ الانزال يستعمل بمعنى الإلهام وغيره والإلهام يكون للصالح والطالح وللخير والشر. وهذه القراءة وإن كان ينحل بها الإشكال إلا أنه يبقى الإشكال قائما على قراءة الجمهور المشهورة المتداولة بين العموم.

ما قاله الأستاذ الإمام في ذلك

قال الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في تفسيره ما نصه (ثم ذكر تعالى أن الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم مجاهدة للنبي (ص) وحسدا له قد تبدلوا الكفر بالإيمان و اشتروا الضلالة بالهدى واتبعوا ما تتلو الشياطين من الإنس من قصصها وأساطيرها أو من الجن في وسوستها أو منهما جميعا (على ملك سليمان) أي ما كانت تتلوه على عهده و في أيام ملكه إذ زعموا أن ملكه قام على أساس السحر والطلسمات وأنه ارتد في آخر عمره وعبد الأصنام مرضاة لنسائه الوثنيات (و ما كفر سليمان) و ما سحر (ولكن الشياطين) الذين يسندون إليه ما انتحلوه من السحر وما تلبثوا به من الكفر هم الذين (كفروا يعلمون الناس السحر ليفتنوا به العامة و يضلوه عن طلب الأشياء من أسبابها الظاهرة ومناهجها المشروعة).

هذه الأوهام والأكاذيب على نبي الله سليمان عليه السلام مما افتجره بعض الدجالين من بني إسرائيل ووسوسوا به إلى بعض المسلمين فصدقوهم في بعض ما زعموه من حكايات السحر وكذبوهم فيما رموا به سليمان من الكفر.

و إنك لترى دجاجة المسلمين إلى اليوم يتلون أقساما و عزائم ويخطون خطوطا و طلاسم ويسمون ذلك خاتم سليمان و عهوده ويزعمون أنها نقي حاملها من اعتداء الجن ومس العفاريت وقد زعم اليهود أن سليمان سحر ودفن السحر تحت كرسية وأنه أضاع خاتمه الذي كان به ملكه فوقع في يد آخر وجلس مجلسه للحكم إلى آخر ما خلطوا فيه التاريخ بالدجل. و روى عنهم أن سليمان هو الذي جمع كتب السحر من الناس ودفنها تحت كرسية ثم استخرجها الناس و تناقلوها. ولا شك أن ما قالوا على سليمان وملكه من خبر السحر والكفر مكذوب افتراه أهل الأهواء وقد قصه الله علينا لنعتبر بما افتراه هؤلاء على الأنبياء وبترجيح فريق من خلفهم الاشتغال بذلك على الاهتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم حتى أنهم نبذوا كتابهم الذي بشر به وراء ظهورهم.

وفي قوله تعالى (يعلمون الناس السحر) وجهان (أحدهما) أنه متصل بقوله (ولكن الشياطين كفروا) أي أن الشياطين هم الذين يعلمون الناس السحر (والثاني) وهو الأظهر أنه متصل بالكلام عن اليهود وأن الكلام في الشياطين قد انتهى عند القول بكفرهم. وانتحال اليهود لتعليم السحر أمر كان مشهورا في زمن التنزيل ولا يزالون ينتحلون ذلك إلى اليوم. أي أن فريقا من اليهود نبذوا كتاب الله واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان. وها هنا يقول القائل بماذا اتبعوا أولئك الشياطين الذين كذبوا على سليمان في رميه بالكفر و زعمهم أن السحر استخرج من كتبه التي كانت تحت كرسية فأجاب على طريق الاستئناف البياني (يعلمون الناس السحر الخ..) ونفى الكفر عن سليمان وإصاقه بالشياطين الكاذبين ذكر بطريق الاعتراض فعلم أيضا أنهم اتبعوا الشياطين بهذه الفرية أيضا.

ثم قال تعالى (وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت) وفي لفظ (الملكين) قراءتان فتح اللام وكسرها فالأولى قراءة الجمهور والثانية قراءة ابن عباس والحسن وأبي الأسود والضحاك وحمل بعضهم قراءة الفتح على قراءة الكسر ويؤيده ما قيل من أن المراد بهما داود وسليمان عليهما السلام وقيل بل هما رجلان صاحبان وقار وسمت فشبها بالملائكة

وكان يؤمهما الناس للحوائح الأهلية ويجلونهما أشد الإجلال فشبها بالملوك ولعل الله تعالى سماهما ملكين (بفتح اللام) حكاية لاعتقاد الناس فيهما أو أن إطلاق لفظ الملكين عليهما مجاز.

ثم قال تعالى (وما يعلمان من أحد حتى يقول إنما نحن فتنة فلا تكفر) أي أن ما عندنا هو أمر يبئلي به الله الناس ويختبرهم فلا تتعلم ما هو كفر فإن أصر علماءهم (فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء و زوجته) أي أنهم كانوا يتعلمون منهم ما وضع لأجل التفريق بين الزوجين وهو نحو ما يسميه الدجاللة الآن (كتاب البغضة) وليس في العبارة ما يدل على أن ما يتعلمونه لهذا الغرض هو مؤثر فيه بطبعه أو بسبب خفي أو بخارقة لا تعقل لها علة ولا أنه غير مؤثر. وليس فيها بيان لما يتعلمونه هل هو كتابة تماثم أو تلاوة رقى وعزائم أو أساليب سعاية أو دسائس تنفير ونكاية أو تأثير نفساني أو وسواس شيطاني وأي شيء من ذلك ثبت علما كان تفصيلا لما أجمله القرآن.

(وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله) أي أنهم ليس لهم قوة غيبية وراء الأسباب التي ربط الله بها المسببات فهم يفعلون بها ما يوهمون الناس أنه فوق استعداد البشر وفوق ما منحوا من القوى والقدر فإذا اتفق أن أصيب أحد بضرر من أعمالهم فإنما ذلك بإذن الله أي بسبب من الأسباب التي جرت العادة بأن تحصل المسببات من ضرر وتقع عند حصولها بإذن الله تعالى.

ثم قال تعالى بعد نفي القوة التي وراء الأسباب عنهم (ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم) ولقد صدق الله تعالى فإننا نرى منتحلي السحر وما في معناه أفقر الناس وأحقهم ولو عقل السفهاء الذين يختلفون إليهم يلتمسون المنافع لأنفسهم والإيقاع بأعدائهم لعلموا أن الشقي في نفسه لا يمكن أن يهدي السعادة لغيره لأن فاقد الشيء لا يعطيه. هذه حالهم فكيف يكونون في الآخرة يوم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون لا جرم أنها تكون حلا سواى واليهود يعلمون ذلك كما قال تعالى (ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون) أي أن من اختار هذا واستبدله بما آتاه الله من أصول الدين والحق وأحكام الشريعة العادلة الموصلين إلى سعادة الدنيا والآخرة فليس له نصيب في نعيم الآخرة وذلك أن التوراة قد حذرت عليهم تعليم السحر وجعلته عبادة الأوثان وشددت العقوبة على فاعله وعلى اتباع الجن والشياطين والكهان (ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون) أي أنهم استبدلوا الإيمان بما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام بهذا السحر الخادع أو لو آمنوا بكتابهم إيمانا حقيقيا ومنه البشارة بالنبي والأمر باتباعه لكان خيرا لهم) انتهى ملخص تفسير الأستاذ الإمام، وهذا هو مجمل جميع ما قاله المفسرون في معنى هذه الآيات.

ما أفهمه في ذلك وأدلتى عليه

أما أنا فأقول: أن من يتأمل في هذه الآيات في حد ذاتها بقطع النظر عما قاله المفسرون من التفاسير والروايات يظهر له فيها معنى واضح لا غبار عليه ولا إشكال فيه. وبيان ذلك أن الله تعالى قد قابل في هذه الآيات السحر بالإيمان ونسب الكفر لمن يتعلم السحر أو يعلمه انظر قوله تعالى (وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر) وقوله (ومما يعلمان من أحد حتى يقول إنما نحن فتنة فلا تكفر) وقوله في آخر هذه الآيات عن اليهود الذين تعاطوا هذا السحر (ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله) وقوله في أول هذه الآيات عنهم أيضا (بل أكثرهم لا يؤمنون) فهذه الآيات كلها تشعر إشعارا ظاهرا بأن المراد من السحر هنا هو ما يقابل الإيمان وأنه هو الكفر بعينه لأن السحر في اللغة يطلق على صف الناس عن الحق وعن الإيمان بثورة مخفية كما هو صريح عدة آيات لا تحصى من القرآن.

وعليه فليس المراد من السحر هنا ما ذكره المفسرون بل المراد به الصرف عن الإيمان إلى الكفر بأسباب خفية عن القوم كتأويل آيات الكتاب المقدس بغير معانيها المرادة وبيانها بغير مرادها المقصودة (إن من البيان لسحرا) وكإضافة بعض الخرافات إليها وزيادة بعض العقائد الوثنية عليها حتى اختلط الحق فيها بالباطل ولم يعرف الصحيح فيها من الفاسد وهكذا مما حدث كله أو أكثره في كثير من الأديان.

وعليه فقد أصبح لهذه الآيات معنى آخر غير ما قاله المفسرون وهو أن الله تعالى يقول: إن أهل الكتاب كلما عاهدوا عهدا بايمانهم بما تجيء به رسلهم نبذهم فريقتهم بتغيير وتبديل معاني ما جاءت به تلك الرسل وبفهمها بغير حقيقتها وتصويرها

بغير صورتها أو ترك العمل بها كلياً الناشئ من عدم صحة الإيمان بها حتى لما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم المقدس لما معهم نبذ أيضاً فريق منهم كتاب الله وهو القرآن وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون معانيه ولا يفهمون ما فيه من العقائد الحق والتعاليم النافعة والعظات السامية واتبعوا العقائد الباطلة والأفكار الكاسدة والأفهام الفاسدة التي كانت تتلوها شياطين الإنس منهم ويضيفها على الدين علماؤهم وحكامهم ومتنفذوهم أيام قوتهم وسلطانهم وملكهم الذي كان في عهد وملك سليمان. (وما كفر سليمان) حيث أنه لم يتبع هذه العقائد ولم يعتقد في هذه الأوهام، ولكن الشياطين كفروا في إتياعها واتقادها وتعليمها لغيرهم من باقي الناس حيث كانوا يعلمونهم هذا السحر أي الصرف عن معاني آيات الله وعن فهم حقائقها كما هي.

وكانوا يعلمونهم أيضاً ما أنزل على الملكين أي العالمين الذين كانا من علماءهم ببيابل المسميين بهاروت وماروت اللذين قلبا معالم دينهم وغيرا معاني كتبهم بسبب أفكارهم الفاسدة وآرائهم الكاسدة وأوهامهم الباطلة.

وإنما سميا (ملكين) لكثرة اعتقاد الناس فيهما وشدة إتياعهم لأقوالهم وأعمالهم كأنهما من ملائكة السماء. وهذان العالمان المشبهان بالملكين ما كانا يعلمان من أحد من ضروب تعاليمهما وآرائهما حتى يقولوا أي بلسان الحال لأن الإنسان خصوصا العالم الشبيه بالملك لا يعلم الناس الأشياء إلا لاعتقاد أنها حق وصدق وليست مستوجبة للكفر لسان حاله هو الذي يقول ذلك لا لسان مقاله إذ لا يعقل أن المعلم يقول لمن يريد أن يتعلم منه (أنا فتنة فلا تكفر) بسبب تعليمي لك هذه العلوم لأن ذلك إشعار منه له بأن تعاليمه قد تستوجب الكفر أو تجر إليه وهذا ما لا يفعله عاقل لأن ذلك بمثابة تحذير من قبول تعاليمه التي يدأب من أجل قبولها وهذا هو عين التناقض ولكن حالة العالم الذي يبدي آراء من نفسه وأفكارا من عنده بالنظر لكونها قد تكون خطأ هي التي تعبر عنه وتقول أنا فتنة واختبار فاختبر ما أقول لك فإن وجدته حقا وإيماننا صادقا فخذ به وإن وجدته باطلا فاتركه لئلا تكفر به.

وعلى قراءة كسر اللام في (الملكين) يكون المراد بهما ملكين من ملوك بابل الذين غيروا كثيرا من معالم دين اليهود وعوائدهم أيام أن كانوا سببا وأسارى عندهم أي أن أكثر فساد اليهود في دينهم كان أيام ممالك ثلاثة. مملكة سليمان بالقدس. ومملكتي هاروت وماروت ببيابل. ولكن فسادهم أيام ملك سليمان قد سماه الله تعالى تلاوة على ملك إشارة إلى أنه ليس لسليمان يد في ذلك بل اليد لشياطين اليهود. وأما فسادهم أيام مملكتي هاروت وماروت فقد سماه الله إنزالا عليهما وإلهاما لهما وإشارة على أنهما هما اللذان افتركا ذلك وفعلاه بالهام نفوسهما بخلاف سليمان فإنه تلاوة من غيره لا إنزال عليه ولا إلهام من نفسه.

وهذان الملكان بالكسر ما كانا يعلمان من أحد من ضروب الدهاء والدعاية والسياسة والخداع والنكايه حتى يقولوا بلسان حالهما إنما نحن فتنة فلا تكفر. وإنما كان ذلك بلسان الحال لأنه لا يعقل أن الملوك تقول بلسان المقال نحن فتنة ولكن لسان حالهم في دهائهم وسياستهم ودعايتهم هو الذي يقول ذلك لأن الدعاية والمخادعة تعبر عن نفسها بنفسها وتظهر لكثير من الناس.

وقوله (فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه) أي يتعلمون منهما ما يضر الناس في دينهم ودنياهم وما يفسد عليهم أمرهم ويفرق بينهم حتى بين المرء وزوجه اللذين هما أكثر الناس ارتباطا وأشداهم التصاقا فليس المقصود من ذلك خصوص ما يفرق بين الزوجة وزوجها كما يقول المفسرون بل هو كناية عن ما فيه ضرر كبير وفساد عظيم وتقريب بين الناس. (وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله) أي أنه لا يتضرر من أعمالهم الفاسدة وأفكارهم الكاسدة وآرائهم الباطلة وأفهامهم العاطلة إلا من أذن الله له بالضرر بسبب إتياعه لهم بدون تعقل واختبار وتقليده إياهم من غير تبصر واعتبار وهم بسبب هذا الإهمال والتقليد الأعمى بدون تفكير وإمعان (يتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق) أي لقد علموا بالضرورة أن من يشتري ما يضره ولا ينفعه فليس له من خلاق في آخرته وعاقبه أمره إذ لا بد وأن يرى نتيجة ذلك ويحس بألم ما يترتب عليه.

والذين يشترون ما يضرهم ولا ينفعهم ويدفعون ثمنه غاليا كثيرون جدا يشترون ما يضرهم ولا ينفعهم بأثمان غالية، والزناة ونحوهم من أرباب الفحش والفجور كذلك. والمقلدون لغيرهم في العقائد الباطلة والآراء الفاسدة والمستبدلون الحق

بالباطل والصحيح بالفساد والعلم بالجهل والمقول بالخرافات والحقائق بالخزعبلات والترهات والمتعلمون لأنواع الفساد والتفريق بدل الإصلاح والتوفيق هم كذلك من الذين يشترون ما يضرهم ولا ينفعهم وممن يعلمون أيضا أنه يضرهم ولا ينفعهم ولكن شهواتهم وأغراضهم تغلب عقلمهم وعلمهم (ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون) حقيقة ما يترتب علي ما يعملون وما ينجم لهم عما يعتقدون. هذا ما أفهمه في معاني هذه الآيات والله أعلم بمراده.